كتاب الشهر

بين القصرين

لنجيب محفوظ

قصة التمرد والثورة على الاستبداد

بقلم يوسف الشاروني

العمل الفني الكبير هو الذي يخصب ذهن المتذوق بحيث يولد لديه افكارا جديدة ويشارك فى عملية هي أقرب الى عملية الخلق ، وليس الاختلاف حول فهم العمل الفني معناه غموض هذا العمل دائما ، بل هو احيانا ما يكون دليلا على خصوبة هذا العمل بحيث يوحي بأكثر من فكرة واكثر من فهم .

والنقد المخلص الجاد ليس مجرد رصف جمل المدح والقدح ، التي لا يمكن ان تقابل بالاهتمام من كل مؤلف او قاريء يحترم نفسه وعقليته ، وليس هو ايضا ان تقف موقف الاستاذية والتعالي من العمل الفني ، لان ذلك من شأنه ان يجعل بيننا وبينه مسافة لا نستطيع عبورها ، وهذه الاستاذية هي التي تجعل الناقد يقع فى خطأ اذ يطالب فنانا عاش فى عصر ماض او بيئة أخرى بآراء واتجاهات وقوالب معاصرة او فى بيئة الناقد نفسه.

انما النقد هو ان نتتلمذ على العمل الفني وان نكون اصدقاء له ، ذلك لان محبتنا للعمل الفني هي الوسيلة الحقيقية لمعايشة الكاتب من داخل عمله ومن داخل بيئته بحيث نستطيع ان نساعد انفسنا ونساعد القاريء بل ونساعد الكاتب نفسه ان كان معاصرا على ان تتكشف جوانب العمل الفني ، وبذلك يكون النقد محاولة للفهم والكشف عن المعنى الانساني الكامن فى تطور العمل الفني من حيث هو قضية يعيشها اشخاص .

قصة « بين القصرين » (١) قصة اسرة عاشت فى الربع الاول من هذا القرن ، وتبدأ حوادث الرواية يوم « قبل العرش الامير احمد فؤاد او السلطان فؤاد كما سيدعى من الان فصاعدا ، وقد تم الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل فى موكبه من قصر البستان الى سراي عابدين ... وسبحان من له الدوام « ص ١٣ »

وقد نقل هذا الخبر السيد احمد عبدالجواد تاجر البن والارز والنقل والصابون بالنحاسين ، وهو رب الاسرة التي تدور حولها احداث القصة، وهو ينقل الخبر الى زوجه امينة ، ونفهم من الحوار ان للسيد احمد عبد الجواد رأيا فى السياسة ، فهو معجب بموقف الامير كمال الدين حسين الذي ابى ان يعتلي عرش ابيه المتوفي فى ظل الانجليز ، وهو معجب بالالمان والترك وافندينا عباس لان كل هؤلاء يحاربون الانجليز كما نفهم ان زوجه امينه لا تكاد تعرف شيئا عن العالم الخارجي وما يصطخب فيه من امور سياسية ، وهي لا تهتم بانباء هذا العالم الا للسرور الذي يبعثه فيها ما تجده فى حديث بعلها معها فى هذه الشؤون الخطيرة من لفتة عطف تزدهيها ، والى ما فى الحديث نفسه من ثقافة يلذ لها ان تعيدها على مسمع من ابنائها وخاصة فتاتيها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجي جهلا تاما .

ومن تكرار القول ان نقول بان نجيب محفوظ هو انشط كتاب القصة المصرية الذين استطاعوا ان يعبروا عن الطبقة الوسطى فى كل ما كتب من روايات عصرية ـ كما يحلو له ان يسميها ـ غير ان ما يميز « بين القصرين » انها تتناول موقف هذه الطبقة فى نهاية الحرب العالمية الاولى حتى تنتهي بموت احد افرادها وهو يشترك فعلا فى الثورة المصرية عام ١٩١٩ ، بينما كانت جميع قصصه الاخرى وهي «القاهرة الجديدة » و « خان الخليلي » و « السراب » و « زقاق المدق » و « بداية ونهاية » تتناول تصوير هذه الطبقة بعد المعاهدة التي تمت بين الوفد والانجليز عام ١٩٣٦ . وهي الروايات التي لوحظ بحق انها تنتهي دائما بكارثة معبرة بذلك عن مأساة افراد الطبقة الوسطى فى تلك الفترة ، الذين كانوا يحسون ان حياتهم وصلت الى مأزق ، وقصة « بين القصرين » تنتهي بموت فهمي ، ولكن ما اعظم الفرق بين هذا اللون من الموت الذي هو فى حقيقته انتصار ، وبين موت عباس الحلو فى « زقاق المدق » او نفيسة وحسنين فى « بداية ونهاية » الذي هو اعلان واضح للهزيمة واليأس .

ونجيب محفوظ لا يقصد قصدا واعيا الى بث فلسفة معينة فيما يكتب ، على النحو الذي يفعله كتاب الاشتراكية او الوجودية اليوم ، بل انه ليتعمد ذلك لانه يخشى ان تطغى الفلسفة على الاحداث فتوجهها توجيها مزيفا ، ولهذا لا يتبع الا احساسه العام بمصريته وبمشاكل الطبقة الوسطى فى المجتمع المصري والارتفاع بهذه المشاكل الى المستوى الانساني ، تعينه على ذلك ثقافته العامة وخبرته الفنية ودأبه وجهده واخلاصه لنفسه ، وهذه هي حدود الواقعية الفنية كما يتشبث بها نجيب محفوظ .

والمعروف ان هناك رأيين فى النقد الفني ، احدهما يرى ان وجود فلسفة معينة يعي بها المؤلف ويهدف الى تحقيقها خلال عمله من شأنه ان يرتفع بالمستوى الفكري للعمل الفني ، بينما يرى الرأي الآخر ان العمل الفني هو تعبير عن انفعالات الانسان فى مختلف صورها خلال المجتمع والتاريخ ، وهذه الانفعالات لا تخضع ولا يجب ان تخضع لفلسفة معينة سابقة فى ذهن الكاتب ، ولعل هذه صورة من صور مشكلة الادب الهادف . وان كان الرد على ذلك بان لكل كاتب فلسفة يعبر بها عن

(١) هي احد اجزاء ثلاثة من ملحمة نثرية كانت هي آخر ما انتجه نجيب محفوظ . وان عظمة هذه الملحمة ترشح المؤلف لكي ينال بكل جدارة جائزة الدولة للادب فى مصر هذا العام . اما هذا البحث فقد القي كمحاضرة فى « نادي القصة » بالقاهرة خلال شهر ابريل الماضي .

وعي او عن غير وعي فى عمله الفني ، ولهذا فان لم يعلن الكاتب عن فلسفته التي يبثها خلال عمله الفني، فان مهمة النقد ان تكشف وان تستخلص هذه الفلسفة . وهذه هي احدى مهام النقد الرئيسية التي طبقت علي الاعمال الفنية فى مختلف العصور ، فساعدتنا علي تفهم أوديب ودون كيشوت وفاوست وهاملت والارض الخراب . وقد اوضحت هذه المهمة ان الرسالة التي يريد ان يبلغها الكاتب للناس هي التي تفرق بين عملين ناجحين من الناحية التكنيكية ، هي التي تفرق بين رواية بوليسية ورواية لجوركي او سارتر .

ولهذا فان علينا ان نتساءل : ماذا يريد نجيب محفوظ ان يقول للناس من خلال عمل بذل فيه هذا المجهودالكبير؟

فاذا تتبعنا قصة « بين القصرين » وجدنا ان نجيب محفوظ يريد ان يصور لنا فترة تاريخية من حياة مصر . وهو يؤرخ اولا للحياة الاجتماعية للطبقة الوسطي فى ذلك الوقت ، وصلاتها البعيدة والقريبة بالتطورات السياسية ، ومن الملاحظ انه اختار فترة تحول تاريخي فى حياة مصر تتغير فيها القيم الاجتماعية والاوضاع السياسية وتعبر عن روح الكفاح التي يضطرم بها شعب مصر ضد مستعمريه . هذا هو الظاهر العام لقصة بين القصرين ، ولكن اذ تمعننا فى تسلسل احداث القصة وجدنا انها تعبر عن التآزر التام بين التمرد على استبداد الاب فى اسرة الطبقة الوسطى المحافظة ، والثورة على استبداد الاستعمار بالمصريين ، مما يمهد لتغير القيم فى الحياة المصرية فيما بعد، وبالتالي فى الاجزاء المقبلة من«بين القصرين»وهما«قصر الشوق»و«السكرية».

فالسيد احمد عبد الجواد نموذج لرب الاسرة فى المجتمع الابوي ، بل انه يذكرنا بالاب القبلي الذي تحدث عنهفرويد فى كتابه و «التوتم والتابو» فهو يحرم على زوجته وبناته واولاده أي لون من الحرية ــ لاسيما الحرية الجنسية ــ بينما يبيح ذلك لنفسه .

نجيب محفوظ

لهذا كان للسيد جانبان ، جانب يظهر به فى بيته ، هو جانب المحافظة ، وهو فى ذلك يمثل اخلاق الطبقة الوسطي المصرية فى ذلك الوقت ، وان كان تمثيلا مغاليا متشددا عما كان سائدا فى وقته باعتراف المؤلف نفسه الذي يشير الى ذلك كلما أتيحت الفرصة ، وجانب متحرر تمثله سهراته مع اصدقائه التجار ، وهو فى ذلك يخرج عن تقاليد التجار من الطبقة الوسطي . ونحن نعثر على ذلك الايضاح فى الجزء التالي من قصة بين القصرين اي فى قصة « قصر الشوق » حين يتحدث جميل الحمزاوي وكيل السيد احمد قائلا « لو كنت اتخذت من التجار خلقهم كما اتخذت حرفتهم ، لكنت الآن من كبار الاغنياء (قصر الشوق ص ١٢٩) . ولكن اخلاق الطبقة الوسطى ما تزال ممثلة فى حرص السيد احمد عبد الجواد على مظهر الرجل الحازم المتدين يبدو به امام آل بيته وجيرانه رغم وجود هذا الجانب الخفي المرح فى حياته « فشأنه شأن الطبقة الوسطى يستميت فى سبيل المحافظة على المظهر وان خالف الباطن ، فلا الناس يعرفون السيد الذي يقيم فى بيته ولا اهل البيت يعرفون السيد الذي يعيش بين الناس » (صفحة ٣٤) ولعل هناك صلة نفسية بين جو المحافظة الشديدة الذي يحرص عليه فى بيته والتحرر الاخلاقي فى الخارج ، باعتبار ان احدهما رد فعل نفسي للاخر .

والسيد احمد عبد الجواد ــ مثل السلطة السياسية فى البيت على حد تعبير المؤلف ص ٢٦٦ ــ يحاول ان يفرض نظامه وصرامته على زوجه امينة وابنتيه خديجة وعائشة وابنائه الثلاثة ياسين كاتب مدرسة النحاسين ، وفهمي الطالب بالحقوق ، وكمال الطالب الصغير بمدرسة خليل اغا . والسيد احمد عبد الجواد بالنسبة لهؤلاء جميعا اشبه بالانا الاعلى الصارم الذي لا يتسامح مع صاحبه لحظة واحدة ، ولكنه لقسوته وصرامته لا يستطيع ان يحتفظ بسيطرته دائما ، ولا على جميع الافراد بدرجة واحدة . ولئن كان البعض يمتص اراءه ويتعصب لوجهة نظره ، الا ان الاكثرية تتمرد عليه تمردا خفيا احيانا ، صريحا احيانا اخرى .

واول لون من الالوان التمرد على هذا السلطان هو تمرد عائشة الاخت الصغرى التي تفوق جمالا اختها خديجة ، وذلك حين تتبادل نظرات الغرام منخلال نافذتها مع ضابط البوليس الشاب اثناء مروره بالطريق، ولكنها تفعل ذلك وكأنها تقترف جريمة دامية (ص ٣٢) فلا تدري « أيجمل بها ان تقلع عن مغامرتها أم تتمادى في مطاوعة قلبها ، كلا الحب والخوف شديد » . ولكن هذا التمرد مايلبث أن يتلاشى ، لاسيما عندما تكتشفه اختها الكبرى خديجةِ وتقف منها موقف الاب صارمة محذرة (ص١٢٧) .

والابن الاكبر ياسين ثائر على طريقته ، فهو يثور على صرامة ابيه عن طريق مغامراته الجنسية « والحق ان عنف ابيه المعهود ، ولو انه اعتوره تغير ملموس منذ ان انخرط الفتى فى سلك موظفي الدولة الا انه لم يزل فى فطره نوعا من العنف الملطف بالكياسة فلم يزايل الموظف خوفه القديم الذي يملأ قلبه وهو تلميذ، وما ان ابتعد عن دكان ابيه وصار بمنجى عن عينه حتى استرد خيلاءه وعادت عيناه الى الذبذبة غير مفرقة بين الهوانم وبائعات الدوم او البرتقال، اذ كان العفريت الذي يركبه مولعا بالنساء كافة » (ص ٦٣) .

والواقع ان ياسين ورث من أبيه جانب الشهوة دون أن يجمع معها جانب الكرامة ، فالسيد عبد الجواد نجح في التوفيق بين الحيوان المتهالك على اللذات وبين الانسان المتطلع الى المبادىء العالية توفيقا ائتلافيا ... كما وفق من قبل في الجمع بين الدين والغواية في وحدة خالية من الاحساس بالذنب والكبت معا (ص ٢٠٠) .

وعندما اكتشف ياسين أنه لايفعل الا مايفعله أبوه لم يشعر بارتياح فحسب ، ولكنه فرح فرحة فاقت كل تقدير ، وذلك لانه كأكثر الغارقين في الشهوات المحرمة ــ يستأنس الى الشبيه ، فكيف اذا وجد « في شخص أبيه ــ القدوة التقليدية ــ الذي طالما ازعجه بشعور وبلا شعور ، أن يجد نفسهواياه على طرفي نقيض » (ص ٢٢٣) . وقالياسين لنفسه « هنيئا لك ياوالدي، اليوم اكتشفتك ، اليوم عيد ميلادي معنفسي»

ولم تكن حياة ياسين الجنسية من اعتدائه على خادمة الاسرة أم حنفي ، الى ملله من زوجه زينب ، الى اعتدائه على خادمتها نور ، الى مرافقته لجارته الست أم مريم ، ثم زواجه بابنتها مريم ومللـه منها، ثم زواجه بزنوبة العوادة، الا صورا متكررة لشخصية ثابتة لاتتطور.

وحين اكتشف السيد أحمد عبد الجواد أن ابنه ياسين يسهر الى الفجر ويعود سكران ، اعترف قائلا : « ان وراء ارادتنا دنيا وشياطين تهزأ من تصميمنا وتفسد علينا نوايانا الطيبة » (ص ٣٥٨) بل انه لايخفى ارتياحه الى ذلك « ثم عاد الى ياسين سريعا فراح يفكر ــ بباطن

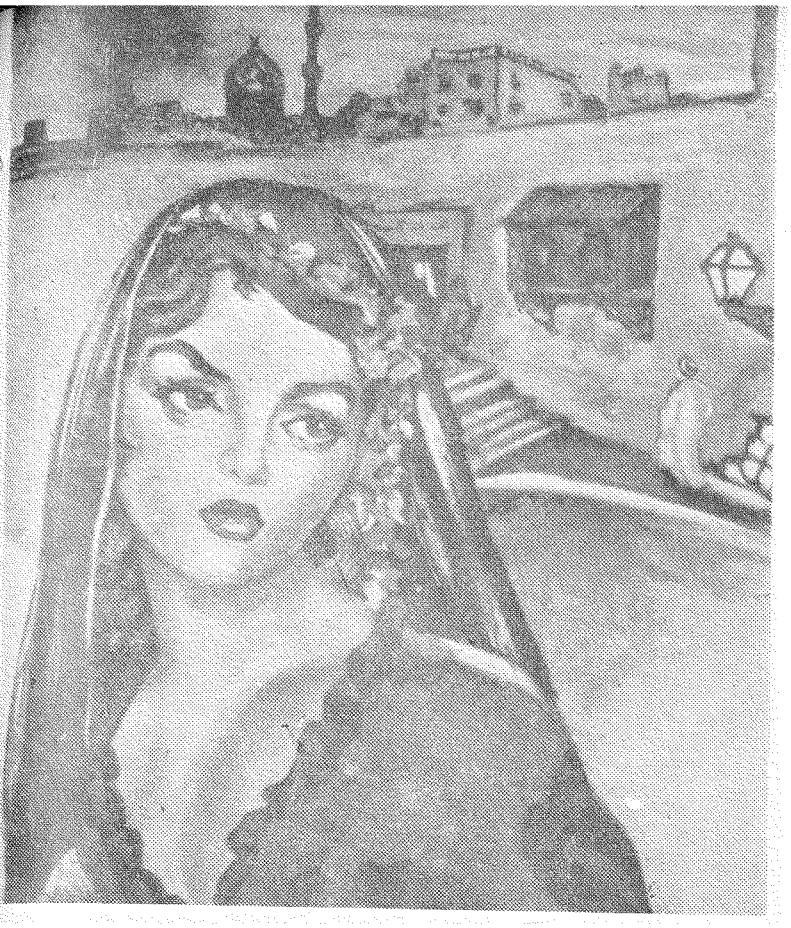

مبتسم ـ فى الطبيعة الواحدة التي تجمع بينهما .. كم يلذه ان يرى نفسه مترعرعة من جديد في حياة ابنائه ؟ على الاقل في ساعات الهـــدوء والصفاء » (ص ٣٤٤) .

وبهذا الاكتشاف المتبادل من جانبي الابن وأبيه نستطيع ان نقول ان هذا اللون من التمرد قد انتهت أهميته ودلالته ، وهذا واضح حـــين حاول ياسين أن يتمرد على تقاليد والده حين خرج مع زوجه زينب لقضاء سهرة عند كشكش بك ، ذلك انه مالبث أن عدل عن هذه المحاولة الثورية عندما خاطبه أبوه متوعدا « لهذا البيت قانون انت تعرفه فوطن نفسك على احترامه مارغبت في البقاء فيه .. » (ص ٢٧٩) .

واخيرا سنحت الفرصة كي « يشترك الجميع ـ وهم لايدرون ـ في الثورة على ارادة الاب » (١٤٨) وذلك عندما سافر السيد احمد عبـد الجواد الى بور سعيد في مهمة تجارية ، واتفق ان سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت العطلة الرسمية بين أفراد الاسرة وتجاوبت رغباتهم الظمأى الى الحرية في الجو الطليق الآمن الذي خلقه على غير انتظار رحيل الاب عن القاهرة كلها ، بيد ان الام كانت تحرص ان تلتزم الاسرة ـ في غياب الاب ـ الحدود التي تلتزمها في حضوره خوفا من مخالفته أكثر منها اقتناعا بوجاهة شدته وصرامته (ص ١٤٨) . ولان الام بدت تخشى مخالفته ولا تقتنع بوجاهة شدته وصرامته ، فقد شاركت في الثورة بل أصبحت بطلتها وهكذا بدت زيارة الحسين « عذرا قويا ـ له صفة القداسة ـ للطفرة اليسارية التي نزعت اليها ارادتها ، ولكنهـا لم تكن وحدها التي تمخضت عنها نفسها اذ لبت دعاءها في الاعماق تيارات حبيسة متلهفة على الانطلاق » (ص ١٤٧) .

وبهذه الثورة الواضحة تخرج القصة من رتابتها التسجيلية الاولى وتشيع فيها الحركة والحياة ، فأمينة ما تلبث ان تعترف بنفسها للسيد بأمر هذا الخروج الغريب على طاعته ونظامه ، فما يلبث أن يأمرها ـ بعد خمسة وعشرين عاما عاشاها معا ـ بالنفي الى منزل أمها ، ويضرب ياسين كف بكف وهو يقول محتجا « ان رجالا غيورين مثله منهـــم اصدقاؤه لا يرون بأسا بالسماح لنسائهم بالخروج كلما دعت ضـــرورة أو مجاملة ، فما باله يقيم من البيت سجنا مؤبدا » (ص ١٦٩) مما يبرهن على أن السيد احمد عبد الجواد كان يمثل صورة متطرفة من محافظة الطبقة الوسطى . حتي الصبي الصغير كمال شارك في هذه الثورة ، وذلك عندما افتقد أمه في المنزل فعرج على دكان ابيه ولـــم يستطع أن يفصح له عن سبب مجيئه « وتحرك السيد عن مكانـــه ليدخل ، ولكن عاودت الغلام الحياة بمجرد تحول ابيه عن عينيه وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة : « رجع نينة اللـه يخليك » وأطلق ساقيه للريح » (ص ١٩٠) .

وأقبلت حرم المرحوم شـوكت لتتوسط فى عودة أمينـة وتعلـن فى الوقت نفسه اختيارها لعائشة لتكون زوجا لابنها خليل . وهكذا عادت الام ، وهكذا تلاشت أيضا آخر مظاهر التمرد الذي أبداه فرد ثالث من أسرة السيد أحمد عبد الجواد .

بل ان أمينة تمتص اراء السيد حتى لتستنكر على ابن زوجها ياسين أن يسهر مع زوجه زينب عند كشكش بك « عابت هذا السلوك امرأة أمضت عمرها حبيسة وراء الجدران ، امرأة دفعت صحتها وسلامتها ثمنا لزيارة بريئة لزين آل البيت لا لكشكش بك ، فمازح انتقادها الصامت شعور طافح بالمرارة والغيظ وكأن منطقها غدا يردد فيما بينها وبـــين نفسها اما ان تنال الاخرى الجزاء أو فلتذهب الحياة هباء » (ص ٢٧٥)

وكذلك عندما غضبت زينب حين ضبطت زوجها ياسين مع خادمتها نور فان امينة « لم تكن تقرها على غضبتها لكرامتها فعدتهاتدللا أثار استياءها ، وجعلت تتساءل كيف تدعي لنفسها من الحقوق مالم تدعه امرأة قط ؟ » (ص ٣٤٦) .

على أية حال فان احداثا مثل تلصص عائشة من خلف خصـــاص النافذة تتطلع الى الضابط الشاب ، وخروج الام لزيارة الحســين ، انما هي المحاولات الاولى التي كانت تقوم بها نساء هذه الطبقة على الوضع الذي كان يجعل من البيت سجنا لهن ، هذه المحاولات التي انتهت في « قصر الشوق » ـ والذي تقع حوادثه بعد خمس سنوات فقط من وقوع حوادث « بين القصرين » ـ انتهت بحق امينة في الخروج لزيـــارة الحسين كلما ارادت « كيف كانت زيارة الحسين لديها امنية فى حكم المستحيل ، ها هي اليوم تزوره كلما زارت القرافة او السكرية (حيث بناتها المتزوجتان) ولكن ماأفدح الثمن الذي دفعته نظير هذه الحرية الضئيلة » (ص ١٦٥) نعم انها حرية ضئيلة لكنها مكسب ، وقد حصلت عليها فعلا نتيجة لشكها في ابنها فهمي ولكنها حصلت عليها على أيـــة حال ، وهذه المحاولات نفسها هي التي انتهت اليوم باندفاع نســـاء الطبقة الوسطى الى الجامعة ومنها الى مختلف المهن .

أما الثورة الحقيقية على الاستبداد الابوي ، فتأتي من فهمي ، الابن الثاني الطالب بكلية الحقوق ، وهي تمتاز بانها ليست ثورة منعزلـــة فردية كثورة عائشة أو ياسين أو أمينة ، بل هي ثورة مرتبطة بثورة المصريين ضد الانجليز الذين يمثلون الاستعمار والاستبداد ، فلا عجب أن فهمي الثائر على استبداد الانجليز بالمصريين يثور بالتالي علـــى استبداد والده به لا سيما اذا كان يقف فى سبيل ثورته الوطنية .

فالحرب تنتهي وقد كسبها الانجليز والسلطان فؤاد ، ثم يقبل فهمي ذات يوم ليسأل ياسين باهتمام : الم تبلغك انباء جديدة ؟ وهنا يتضح

الفارق بين ياسين وفهمي ، ياسين مشغول بزواجه الذي انقلب بعد أشهر شربة زيت خروع ، وفهمي مشغول بالوفد المصري المكون من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمي بك وعلي شعراوي باشا وكيف توجهوا الى دار الحماية وقابلوا نائب الملك للمطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال (ص ٢٨٥) . ويحس فهمي بأنه في حاجة الى « وطن جديد ، وبيت جديد ، وأهل جدد ، ينتفضون جميعا حيوية وحماسة ، ولكن ماأن يفيق على هذا الجو الخانق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتى تشب بين اضلعه نار الحسرة والالم .. فيود ان يجد نفسه مرة اخرى في جمع الطلاب من اخوانه فيروي ظمأه الى الحماس والحرية » ص ٢٨٩ .

ومن خلال المعركة يتطور فهمي في علاقته بالعالم الخارجي وبأبيه « لقد حي في الايام الاربعة الاخيرة المنطوية حياة عريضة لم يكن له بها عهد من قبل .. حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر في سبيل شيء باهر أثمن منها وأجل » (٣١٩) . على ان شيئا ما ماينفك يعطل اندفاعه قليلا وذلك حين يعلم والداه بجهاده ، فما عسى ان يفعل معه استبداد أبيه وحنان امه ؟ وهكذا يواجه فهمي معركة عملية خارج البيت ومعركة نفسية داخل البيت ، وما يلبث ايمانه أن يتغلب لان هذا الايمان «أقوى من الموت وأشرف من الذل » (ص ٣٢٠) .

وعندما اكتشف ابوه انه يشترك مع المجاهدين في كفاحهم ضد الانجليز حاول ان يفرض سيطرته عليه كما فرضها من قبل على امينة وعائشة وياسين ، ولكن فهمي رفض ان يمتد استبداد أبيه الى هذا الحد ، ولتكن ثورة على الاستبداد ، ايا كان ، في الوطن أو في البيت ! ولجأ اولا الى التمرد المقنع ، الى الكذب « لم يكن الكذب في هذا البيت بالرذيلة المحزنة ، ولم يكن في وسع أحد منهم ان يتمتع بالسلامة في ظل الاب دون حماية من الكذب ، وهم يجاهرون فيما بينهم وبين أنفسهم بل يتفقون عليهم في الموقف المحرج ، وهل كان في نية الام يوم تسللت في غيبة السيد الى زيارة الحسين أن تعترف بفعلتها ؟.. وهل كان في وسع ياسين ان يسكر وهو (أي فهمي) ان يحب مريم ، وكمال ان يتعفرت بين خان جعفر والخرنفش بلا حماية من الكذب ، ليس الكذب مما يتورع عنه أحد منهم ، ولو انهم التزموا الصدق مع ابيهم ماذاقوا للحياة طعما » (ص ٣٧٥) .

ولكن أباه ما زال يضيق عليه الخناق حيث لا يستطاع الكذب ، فلا بد اذن من الافصاح عن الثورة ، وهكذا رفض ان يقسم على المصحف الذي قدمه له ابوه بأن يقطع كل صلة بينه وبين الثورة .

ولكن الثورة مُاتلبث أن تصل الى السيد أحمد عبد الجواد نفسه ، فالطبقة الوسطى لاتستطيع أن تعزل نفسها عن الكفاح الوطني حتى ولو لم تكن هي التي بدأته ، بل هي تشارك فيه بارادتها كما شارك فهمي او بالرغم منها كما شارك السيد نفسه « لم يكن شيء في السماء ولا في الارض قد خرق المألوف مما اعتاد السيد ان يراه كل يوم ، ولكن نفس الرجل ، والانفس الموصولة بنفسه ، وربما انفس الناس جميعا ، تعرضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها او كادت حتى قال السيد انه لم تمر به ايام كهذه الايام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم باحساس واحد » (ص ٢٩٠) .

ولا يلبث السيد محمد عفت ان يحمل الى صديقه السيد احمد عريضه يوقعها هو وغيره من التجار يوكلون فيها سعدا للتكلم مع الانجليز باسم الامة « ووقع السيد بامضائه في سرور تجلى في تألق عينيه الزرقاوين » (ص ٢٩١) . ولكن السيد احمد مايزال يعبر عن الحياد الدقيق الذي يحاول أن يقفه معظم افراد الطبقة الوسطى من القضايا السياسية . فقد « قنع دائما من وطنيته بالعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة الذي آنس اليه فلا يرضى عنه بديلا ، لذلك لم يدر بخلده يوما ان ينضم الى لجنة من لجان الحزب الوطني على شدة تعلقه بمبادئه ، ولا حتى ان يجشم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته .. ليكن اذن وقته خالصا لحياته ، وللوطن مايشاء من قلبه وعواطفه وماله » (ص ٢٩٣) . ثم يضيف المؤلف قوله « لم يتصور ان الوطنية يمكن ان تطالبه بأكثر مما يجود به » اي ان المؤلف يعبر لنا عن خلافه مع رأي بطله ، ممهدا بذلك الى ان الاحداث المقبلة سترغمه على ان يتجاوز هذه الدرجة القنوعة من المشاركةالوطنية .

وعندما تبلغه انباء سعد يصيبه الحزن والوجوم ، وسرعان ما يستولي اليأس عليه هو واخوانه من فئة التجار وكأنما سعد قد انتهى بنفيه «رجل ولا كل الرجال ، بعث لحظة من الحياة باهرة ومض كالحلم وسوف ينسى فلا يبقى منه الا ما يبقى من حلم عند الضحى » ويفسر لنا المؤلف هذا اليأس ، لانه اقترن في ذهنهم بنفي افندينا الذي لم يعد (ص ٣١٤) أي ان هؤلاء التجار يتصورون ان ما حدث مرة لا بد وان يتكرر مرة اخرى ، ولا اختلاف بين حدث وآخر .

وهكذا شارك احمد عبد الجواد في الحدث العام ، وهكذا خرجت اسرته من قوقعيتها وكان لهذا تأثيره في العلاقات الداخلية في تركيب هذه الاسرة ، فان فهمي الذي « يلوذ بالصمت بين يدي والده ما لم يبدأه هو بالحديث نقل اليه في اسهاب ما اتصل بعلمه عن مقابلة سعد لنائب الملك » (ص ٢٩٠) . ومن خلال كمال يعرض نجيب محفوظ الاستجابات المختلفة لافراد الاسرة الواحدة لهذا الحدث العام « فبينما يجد فهمي ثائرا يحمل على الانجليز بحنق .. اذا بياسين يناقش الاخبار في اهتمام رصين مشوب بأسف هادىء لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة ، ثم السهر حتى منتصف الليل ، اما امه فلا تكف عن دعاء الله ان ينشر السلام .. ويصفي قلوب المصريين والانجليز جميعا ، والادهى من كل اولئك زينب زوجة اخيه التي افزعتها الاحداث فلم تجد من تصب عليه غضبتها الا سعد زغلول نفسه متهمة اياه بأنه سبب هذا الشر كله ، وانه لو عاش كما يعيش عباد الله في دعة وسلام ، ما تعرض له احد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران .» (ص ٣٢٢) .

في هذه الفقرة نجد نجيب محفوظ يحرص على ان يلتقط الحدث من كل زواياه ، معبرا عن فكرته عن الواقعية ، فليس ابطاله كلهم متحمسين للقضية الوطنية ،فهذه مثالية بعيدة عن الواقع ، وليس ابطاله كلهم منصرفين او ثائرين على الحركة الوطنية ، فهذا ايضا مجافاة للواقع ، ان نجيب محفوظ حريص على ان يلتقط الواقع من كل زواياه بل وان يحتفظ بالتوازن الهندسي في لقطاته ، ففهمي في اقصىالطرف ثائر حانق على الانجليز ، مشارك في الثورة مشاركة فعالة ، وزينب في اقصى الطرف الآخر تصب غضبتها على سعد زغلول ، وبين هذين الطرفين توجد درجات من الحماس ، وهناك كمال او الكاميرا التي يمسك بها نجيب محفوظ لتسجل زوايا المشهد جميعها .

ولكن المشهد متطور ، فالحدث العام يزداد اقترابا من هؤلاء الاشخاص ، فقد عسكر الانجليز امامهم ، ولهذا فان الام تجزع بدلا من مجرد الدعاء لله ان تصفو قلوب الجميع ، واضطرت زينب ان تقول « ربنا على اولاد الحرام » وازدادت جرأة فهمي على مناقشة ابيه عندما امره بعدم فتح

باب المنزل وعدم خروج أي شخص . اما ياسين فانه يرتكب في تلك الليلة جريمته الجنسية الجديدة مع نور خادمة زوجته .

وامينة تمثل اكثرية الامهات في الطبقة الوسطى ، اللاتي يقفن من مشاركة ابنائهن في الكفاح الوطني موقف المثبط والمعطل ، وهكذا تطلب من ابنها فهمي الا يبدي كراهيته للانجليز ان كان يحبها ، فهي تعرقل كفاحه الوطني بربطه اليها بروابط عاطفية نفسية غير منطقية ، وان الام في مختلف روايات نجيب محفوظ موضوع جدير بالدراسة في « بداية ونهاية » وفي « السراب » وفي « زقاق المدق » وفي « كفاح طيبة » وفي « بين القصرين » ، ولكننا مهما تتبعنا الام عند نجيب محفوظ لا نستطيع ان نجدها متطورة على النحو الذي صوره لنا غوركي مثلا ، لان نجيب يتحدث اولا عن امهات الطبقة الوسطى ، ولانه يضفي ثانيا على واقعيته احيانا صفة الاغلبية الديموقراطية ، فهو يريد لبعض اشخاصه ان يمثلوا الاغلبية ، ويرى فى الام كما صورها غوركي تعبيرا عن الاقلية في عالم الامهات ، ولهذا فهي تنحرف عن الواقعية كما يراها ، ولكن هذا الفهم للواقعية من شأنه ان يعطل عمل الرؤيا لدى الفنان ، لان اختيار النموذج الذي يختلف عن الاكثرية ويتقدم عصره الذي يكون نادرا في الحاضر ، عاما في المستقبل ، هو لون من الوان النبوة التي يوهبها الفنان والتي عليه ان يجيد استغلالها ليضفي على عمله ميزة استشفاف المستقبل الى جانب الكشف عن الواقع الذي خلق مثل هذا النموذج .

وهذا هو الفارق بين « عودة الروح » لتوفيق الحكيم وقصة « بين القصرين » فكلتا الروايتين وقعت احداثهما اثناء الثورة المصرية عام ١٩١٩ ، ولكن « عودة الروح » وان كتبت عن تلك الثورة بعد وقوعها ، الا انها تحمل روح النبوة بالنسبة لكفاح الشعب المصري فيما تلا ذلك من احداث ، حتى وجدنا اخيرا من يقتبس فقرات منها ويبرهن بها على ان توفيق الحكيم كان يتنبأ فيها بالتغيرات التي مرت بها مصر بعد كتابتها بنحو ربع قرن .

بهذا الفهم للواقعية يكشف لنا نجيب محفوظ عن موقف الحياد الدقيق الذي تقفه اغلبية الطبقة الوسطى من الكفاح الوطني ، وذلك عندما صور موقف السيد احمد عبد الجواد من ابنيه ، ابنه ياسين الذي اتهم بالخيانة في الجامع حتى كادت ان تتلفه النعال ، وابنه فهمي الذي اكتشف ابوه في تلك اللحظة انه عضو في اللجنة الثورية للطلبة ولولاه ما تم انقاذ اخيه من نعال المصلين .

فاحمد عبد الجواد يستنكر كيف يتهم الناس ابنه ياسين بالخيانة ، ثم هو غاضب على ابنه « هذا الثور ابن المرة لن يعفيك ابدا من متاعبه .. لا بد ان يسامر الانجليز كي ادفع انا الثمن للسفلة المتهجمين » (ص.٣٧) لكنه لا يلبث ان يقول لنفسه « ليس ياسين وحده المذنب ، ليس وحده الذي يتحفه بالمتاعب ، فهنالك البطل ويعني به فهمي ، وهكذا « انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين » (ص ٢٧١)، على حد تعبير ياسين ، وكأنما يريد المؤلف بذلك ان يقول ان الطبقة الوسطى قد يوجد فيها من يتهمون بالخيانة امثال ياسين ، وقد يوجد فيها مجاهدون امثال فهمي، ولكن اغلبها يقف موقف السيد احمد عبد الجواد « انه لا يحتقر المجاهدين ، وهو ابعد ما يكون عن ذلك ، طالما تابع انباءهم بحماس ودعا لهم عقب كل صلاة بالتوفيق ، طالما ملأته اخبار الاضراب والتخريب والمعارك املا واعجابا » (ص ٣٧٢) ولكن الامر يختلف كل الاختلاف اذا صدر عمل من هذه الاعمال عن ابن من ابنائه كأنهم جنس قائم بذاته خارج نطاق التاريخ .. الثورة واعمالها فضائل لا شك فيها ما دامت بعيدة عن بيته .. فاذا طرقت بابه وتهددت امنه وسلامه وحياة ابنائه ، تغير طعمها ولذتها ومغزاها وانقلبت هوسا وجنونا وعقوقا وقلة ادب ، فلتشتعل الثورة في الخارج وليشارك هو بقلبه كله وليبذل لها كل ما في وسعه من مال .. وقد فعل ، ولكن البيت له وحده دون شريك ومن تحدثه نفسه فيه بالاشتراك فى الثورة فهو ثائر عليه هو لا على الانجليز، انه يترحم ليل نهار على الشهداء ويعجب كل الاعجاب بالشجاعة التي يتذرع بها آلهم فيما يروي الرواة ، ولكنه لن يسمح لابن من ابنائه ان ينضم الى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التي يتذرع بها آلهم .. انزعج الرجل انزعاجا لم يشعر بمثله من قبل ، فاق انزعاجه في مأزق الجامع نفسه » (ص ٣٧٣) أي ان انزعاج السيد من اخبار جهاد ابنه فهمي فاق انزعاجه من اخبار خيانة ابنه ياسين ، فحاول ان يخيف ابنه من عواقب عمله حتى صاح به في لحظة قائلا « انا اسلمك بنفسي الى البوليس » .

وهكذا يكشف لنا نجيب محفوظ عن صورة من صور الخوف الذي يملأ قلب الاب على ابنه وعن صورة من صور الآباء في الطبقة الوسطى الذين يبلغ بهم الخوف على انفسهم ان يشوا بأبنائهم الى البوليس فهم لا يريدون خيانة ولا تضحية ، بل مجرد تأييد عاطفي لا نفع منه اذا جد الجد .

ولكن نجيب محفوظ ما يزال مخلصا لواقعيته ، فهذا التهرب من مسؤولية الكفاح لا يعفي اصحابه من الاشتراك فيه بدورهم ولو على الرغم من ارادتهم ، انهم يحسبون ان الامر اختياري ، يمكننا ان نخون او نؤيد ، يمكننا ان نشترك بعواطفنا واموالنا او نشي الى البوليس بأبنائنا واخواننا او لا نكترث اطلاقا ، لكن الحوادث ما تلبث ان تثبت ان الامر ليس باختيارهم تماما كما يحبون ان يتوهموا ، وان الاحداث

في السوق

موتى بلا قبور

البغي الفاضلة

مسرحيتان

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

في سلسلة : روائع المسرح العالمي

منشورات دار الآداب

ص. ب. ٤١٢٣

تدفعهم دفعا الى جانب دون آخر ما داموا لم يستخدموا حرية الاختيار التي اتيحت لهم ، فالسيد احمد عبد الجواد مصري وليس انجليزيا ، مستعمَر وليس مستعمِر ، ولهذا فهو يجد نفسه اولا امام ابنيه اللذين لم يكن يعلم عن تصرفاتهما شيئا فيصيح « يا اولاد الكلب .. الله يقطع الاولاد والخلف والبيوت » (ص ٣٧٠)« لماذا تسوقني قدماي الى البيت ؟ لم لا اتناول لقمتي بعيدا عن الجو المسموم ؟ » ان احمد عبد الجواد يحاول التهرب عندما يجد الاحداث تضيق عليه شيئا فشيئا ، وهو لا يحاول التهرب هذه المرة من الثورة التي شبت في شوارع المدينة بل هو يحاول التهرب من الثورة التي تسربت الى بيته .

غير ان الاحداث ما تلبث ان تمسك بتلابيبه هو ، لا مفر للطبقة الوسطى ان تهرب من الثورة في شوارع المدينة الى حجرات بيونها ، ولا من حجرات بيوتها الى مكان خيالي بعيد ، حتى ولو كان السيد احمد عبد الجواد يلهو اثناء هذه الاحداث الدامية في منزل جارته الست ام مريم حتى منتصف الليل ، وكأنما نجيب محفوظ يريد ان يقول ان اللهو نفسه هو الذي عرضه للوقوع في ايدي الانجليز ، كالفأر الذي يعدو بأقصى سرعته ليجد نفسه في فم الثعبان، فلولا سهره حتى منتصف الليل ما وقع في ايدي الجند الانجليزي وهو خارج في طريقه الى بيته ، وقد امره الجندي بأن يتبعه فركبه الفزع حتى « طارت الخمر وطار عقله » (ص ٣٩٤) ما اعظم التناقض بين اللحظة التي كان يعيشها منذ دقائق وبين اللحظة التي يعيشها الآن ، ومع ذلك فان احداهما افضت الى الاخرى .

وجعل يتساءل « فيم القبض عليه ؟ لا هو من الثوار ولا هو من المشتغلين بالسياسة ولا حتى من الشبان ، فهل يطلعون على الافئدة ويحاسبون المشاعر ، أو تراهم يعتقلون افراد الشعب بعد ان فرغوا من اعتقال الزعماء » (ص ٣٩٤) وهكذا يدرك الرجل الذي تهرب من المشاركة الجدية في الكفاح وحاول ان يثني ابنه عنه ولو بابلاغ البوليس ، يدرك ان هذا جميعه لا يعفيه من تحمل نصيبه هو شخصيا ، حتى ليتساءل عما اذا كانوا يطلعون على الافئدة ويحاسبون على المشاعر ، بل انه تذكر في تلك اللحظة ابنه فهمي ـ الذي هدده بابلاغ البوليس عنه ـ واعلن حاجته اليه لو كان يعرف الانجليزية ليسأل آسره :.. اين فهمي ليحادثه نيابة عنه ؟ .. وخزه الالم والحنين ، اين فهمي وياسين وكمال وخديجه وعائشة وامهم » (ص ٣٩٤) الآن عندما دفع الى المعركة لم يعد يدعو الله ان يقطع الاولاد والخلف والبيوت ، بل انه يحن اليهم ويذكرهم ويحس انهم سنده في هذه المحنة ، وهذا هو الصدق الفني الذي يجعلنا نحس بنجاح العمل .

واخيرا وجد السيد احمد عبد الجواد نفسه مع آخرين وهم يؤمرون بملء حفرة كبيرة بالتراب ، وهنا وجد نفسه يقول « هنيئا لنا هذه المشاركة في جحيم الثورة ، لم لا ؟ البلد ثائرة كل يوم ، كل ساعة ضحايا وشهداء بيد ان قراءة الصحف وتناقل الاخبار شيء ، اما حمل التراب تحت تهديد البنادق فشيء آخر . هنيئا لكم ايها النائمون في اسرتكم ، اللهم احفظنا ، لست لها ، لست لها ، اللهم اهزم المشركين بقوتك ، نحن ضعفاء ، لست لها » (ص ٣٩٨) وهكذا تهز الثورة السيد احمد عبد الجواد ، وكأنما ينتقم نجيب محفوظ من هذا « الانا الاعلى » الذي يحيط نفسه بكل مظاهر القداسة والالوهية في بيته عندما جعله يحمل التراب بنفسه وهو يستطرد في تأملاته قائلا « لا طعم للحياد في ظل الثورة ، الثورة .. أي جندي يقبض عليك ، تحمل التراب بكفيك .. فهمي يقول لك لا ، متى تعود الدنيا الى اصلها ؟ صداع ؟ بل صداع وغثيان ، دقائق من الراحة لا اطمع في مزيد » (ص ٣٩٩) .

وفي اليوم التالي استرد السيد احمد « الكثير من روحه المعنوية ، فتعذر عليه ان يغفل الجانب الفكاهي من الحادث حتى غلب ما عداه فانتهى الحديث الى نوع من المزاح » (ص ٤٠٠) وهكذا حاول السيد احمد عبد الجواد ان يسترد سريعا هيبته وثقته في نفسه ، لا يدرك ان هناك حدثا اخطر ينتظره ولن يجعله يعود الى مزاحه بمثل هذه السهولة وذلك اليسر.

وعندما قتل ابن الفولي في المظاهرات قال السيد احمد يائسا « هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الانجليز »» وعندما عاد سعد وزع السيد احمد الشربات كما توزع بقية الدكاكين واكثر ، كما علق صورة سعد تحت البسملة . وذلك لانه ـ على حسب قول السيد ـ قد مضى عهد الخوف والدمار الى غير رجعة . « ألا ترى المظاهرات تمر تحت اعين الانجليز دون ان يتعرضوا لها بسوء ؟ علق الصورة وتوكل على الله » (ص ٤٢٧) . بل اصبح أشتراك فهمي في المظاهرات من دواعي فخره حتى انه قال « ليته اشترك في الاعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم ، سأقول من الآن فصاعدا انه خاض غمار الثورة .. والله لو كنت شابا لفعلت ما لم يفعل ابنك » (ص ٤٣٤) وهكذا يكشف لنا نجيب محفوظ بوضوح عن نفسية هذه الطبقة المذبذبة التي تنكمش اذا أحست الخطر ، وتسارع الى جني الثمار اذا بدا الانتصار .

وها هو ياسين يقول لفهمي « احسبتني قائد الوطنية ؟.. المسألة اني لا احب الزياط والعنف ، ولا اجد حرجا في التوفيق بين حب الوطن وحب السلامة » وعندما أحرجه فهمي قائلا «واذا شق التوفيق بينهما ؟» اجاب في صراحة « قدمت حب السلامة .. نفسي اولا ، الا يستطيع الوطن ان يسعد الا بالتهام حياتي ؟ يفتح الله ، انا لا افرط في حياتي ولكني سأحب الوطن ما دمت حيا » فأجابت امه قائلة : هذا عين العقل (ص ٤٢٩) .

وامينة ايضا كانت تلقي اللوم على سعد كلما وقع حادث مؤسف ، لكن عندما عاد من المنفى لم تجد غضاضة في ان تعترف بأن رجلا يجمع الكل على حبه لا بد ان الله يحبه كذلك (ص ٤٣٠) ولكن امينة تستنكر وجود ام تزغرد لاستشهاد ابنها « أين ؟ على هذه الارض ؟ ولا تحت الارض في عالم الشياطين » (ص ٤٣٠) .

وهذه اقصى صورة من صور الايجابية لنساء « بين القصرين » ، وذلك لان نساء هذه الطبقة لم يشاركن تاريخيا في ثورة ١٩١٩ ، انما شاركت فيها بعض زوجات الساسة وبعض نساء الطبقة البورجوازية الكبيرة ، اللاتي كان لديهن شيء من التحرر كما يتبين لنا ذلك في الجزء الثاني « قصر الشوق » ، ومع ذلك فان الاخلاص التاريخي عند نجيب محفوظ جعله يحرص على ذكر الدور الذي قامت به النساء في تلك الثورة ، فأشار الى مظاهراتهن والى شعر حافظ ابراهيم في هذه المظاهرة . فان حدود الواقعية عند نجيب محفوظ تجعله يرى ان ايجاد نموذج من هذه البيئة يشارك في الثورة على النحو الذي شارك به فهمي بين الرجال انما هو افتعال وابتعاد عن الواقعية .

وهكذا يرسم لنا نجيب محفوظ التغيرات الانفعالية والعاطفية التي تمر بافراد الاسرة ـ كل من خلال شخصيته ـ بتغير الحدث العام : اولا عندما كانت الثورة مجرد انباء بالنسبة لهم ، ثم وهي تقترب منهم وتجذبهم اليها ، واخيرا وهي تنتصر ممثلة في عودة سعد زغلول .

واخيرا لقي فهمي مصرعه ، لقيه اثناء مظاهرة سلمية قامت للاحتفال

بعودة سعد زغلول وسمحت بها السلطة ، وكأنما نجيب محفوظ يريد ان يقول انه لا امان في ظل الاستعمار ، وان الغدر طبيعته ، وكأنما يريد ان يعبر من ناحية اخرى عن فكرته « عن القدر » فهذا فهمي قد نجا من كل احداث الثورة السابقة ، ليلقي اليوم مصرعه اثناء اشتراكه في مظاهرة سلمية .

واسلوب نجيب محفوظ وهو يصف مصرع فهمي تعبيرواضح عن ارتباط المضمون بالاسلوب ، فهو يخرج عن اسلوب الرواية والحوار الى اسلوب المونولوج الداخلي « ما اشد الضوضاء .. ولكن بما علا صراخها ؟ هل تذكر ؟ ما اسرع ما تفلت منك الذكريات . ماذا تريد ؟ ان تهتف ؟ أي هتاف ؟ او هو نداء فحسب ؟ .. من ؟ ما ؟ في باطنك يتكلم ، هل تسمع ؟ هل ترى ؟ ولكن اين ؟ لا شيء ، لا شيء ، ظلام في ظلام ، حركة لطيفة تطرد بانتظام ، كدقات الساعة ، ينساب معها القلب ، تصاحبها وشوشة ، باب الحديقة .. أليس كذلك ؟ يتحرك حركة نموذجية سائلة ، يذوب رويدا ، الشجرة السامقة ترقص في هوادة ، السماء ؟ منبسطة عالية ، لا شيء الا السماء هادئة باسمة يقطر منها السلام ..

ان هذا الاسلوب لم يظهر عند نجيب محفوظ الا في اواخر قصة « بداية ونهاية » وهو يصف قصة موت نفيسه وانتحار اخيها الضابط حسنين . ولكن ما ابعد الفارق بين النهايتين ، فموت حسنين جاء يأسا بعد ان حمل اخته على الالقاء بنفسها في النيل ، وجاء تعبيرا عن انعزاله عن مجتمعه ، لذلك تساءل حسنين في مونولوجه الداخلي قائلا « ماذا فعلت ؟ انه اليأس الذي فعل .. واذا كانت الدنيا قبيحة فنفسي أقبح منها . ما وجدت في نفسي يوما الا تمنيات الدمار لمن حولي . فكيف ابحث لنفسي ان اكون قاضيا وانا على رأس المجرمين ؟ لقد قضي علي » . وينتهي مونولوج حسنين الداخلي ، بل تنتهي « بداية ونهاية » بهذه الجملة « فلاكن شجاعا ولو مرة واحدة . ليرحمنا الله .. » قارن هذا بموت فهمي الذي جاء تتويجا لاندماجه في المجموع ، لهذا كانت نهاية مونولوجه « لا شيء الا السماء هادئة باسمة يقطر منها السلام ».

وبعد مضي سنوات من مصرع فهمي « تذكر السيد احمد كيف ثار على الثورة .. وكيف ثاب رويدا الى مشاعره الوطنية الاولى لما اسبغه الناس عليه من تقدير واكبار بصفته والدا لشهيد نبيل ، ثم كيف انقلبت مأساة فهمي مع الزمن مفخرة يباهى بها وهو لا يدري » (ص ٧٨ من قصر الشوق) .

وهكذا يسلط نجيب محفوظ الكاميرا من جميع الزوايا سواء من ناحية وقع الحادث الواحد على عدة افراد في اللحظة الواحدة ، او وقع الحادث الواحد على فرد واحد في التاريخ الطويل .

وهكذا نجد ان التمرد على الاب الصارم الذي يشكل ضمائر ابنائه ويعبر عن ضمير عصره او ضمير الطبقة الوسطى في ذلك الوقت على الاقل ، هو الخط المعبر عن الواقع المتطور في قصة « بين القصرين » ، حتى المؤلف يشترك في هذه الثورة عندما يجعل بطله السيد احمد عبد الجواد يحمل التراب على كتفيه في منتصف الليل . ولعل نجيب محفوظ يعبر بذلك عن ثورته على تردد الطبقة الوسطى التي كونته وعلى طفولته التي استبدت بها صرامة الابوة وعلى ما ترسب في ضميره من ذلك كله ، وتصل الثورة الى قمتها الواضحة عندما يثور فهمي على استبداد الوالد واستبداد الاستعمار معا ويدفع حياته ثمنا لذلك فتتحطم سيطرة الانا الاعلى هذه المرة تحطما حقيقيا وينهار السيد احمد عبد الجواد انهيارا واضحا في قصة « قصر الشوق » مصاحبا في ذلك تقدمه في العمر وتميع الحركة الوطنية معا ، وعلى هذه الانقاض تظهر في « قصر الشوق » ثورة كمال العاطفية والفكرية على الطبقة المترفة والساسة الذين يخونون بلدهم ، وعلى الخرافات التي تلقنها عن امه وعلى العقيدة ، ويبحث عن قيم جديدة وضمير جديد يعكس تطور الطبقة الوسطى التي تأثرت بما جد من احداث وثقافات حتى يعلن ان « الدين الحقيقي هو العلم » (قصر الشوق ص ٣٥٣) ثم يهتف في صراحة ووضوح « ليسقط الاب المستبد » (قصر الشوق ص ٣٥٣) .

والذي لا شك فيه هو ان نجيب محفوظ في قصته « بين القصرين » قد برهن على انه سيطر سيطرة تامة على فنه الروائي الذي تمرس به خلال عشر روايات سابقة . ولا شك ان سر النجاح التكنيكي عند نجيب محفوظ هو النفاذ المباشر الى تجارب شخصياته عن طريق الاحداث والحوار الرائع ، وانعدام الوصف التجريدي ، وايجاد تنوع في شخصياته، بعضهم ثابت لا يتطور وبعضهم يتطور ، وحرصه على عدم وجود تناقض في تصرفات هؤلاء الاشخاص ، والتقاطه الاحداث والشخصيات من اكثر من زاوية .

ولكن الذي لا شك فيه ان الوصف التسجيلي بلغ درجة الاملال في بعض الصفحات ، ولو اننا نجد هذا الاملال في كثير من الملاحم الفنية الكبرى مثل « دن كيشوت » و « الحرب والسلام » و « الاخوة كرامازوف » . الا ان طبيعة العصر الحاضر لا تشجع كثيرا هذا اللون من الاسلوب ، وتفضل عليه الاسلوب المباشر الذي تغني فيه الاشارة او اللمحة عن الاسهاب والتفصيل .

ويبدو ان نجيب محفوظ نفسه قد اتخم هو بدوره من هذا الاسلوب حتى لقد ذكر لي ان نفسه الان اصبحت تعافه كما يعاف الشبعان من طعام كان متلهفا عليه وهو جوعان ، ثم اتيح له في كميات كبيرة فأقبل عليه حتى شبع بل حدث له ما يشبه رد الفعل . وهذا دليل على ان نجيب محفوظ لا يريد ان يكرر نفسه ، يريد ان يتطور ، يريد ان يجدد مضمونه الفني ، لان البحث عن اسلوب جديد معناه بالضرورة البحث عن مضمون جديد .

القاهرة — **يوسف الشاروني**

مجموعات « الاداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات الاربع الاولى من الآداب تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٤٥ ل.ل	٥٠ ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «